أشعار من قلب المعاناة

قراءة في ديوان

" أناشيد على الدرب "

للشاعر شريف قاسم

obeikandl.com

للشعر عندما ينبجس من رحم المعاناة ومن نبض آهات المسجونين والمستضعفين طعم آخر ، إنه مذاق البؤس اللاهث خلف شواطئ الأمان ، الباحث عن حقيقة الوجود، تلك التي لا يدرك كنهها إلا من أضاء الله بصيرته بنور الإيمان ، وامتلأ قلبه بحب الله ورسوله ، وكان القرآن الكريم ربيع قلبه وذهاب همه وغمه . . والضرب على وتر نصرة المستضعفين في الأرض جانب لا بد أن يتنبه إليه الأدباء الاسلاميون .

ذلك أن النصر إنما يأتي من أولئك المستضعفين الذين إذا حملوا فكرة أخلصوا لها ولم تقعدهم بهارج الحياة عن بذل الغالي والنفيس، أما المترفون فهم بطبعهم ضد التغيير مهما كان شكله ولونه . . وتلك حقيقة أثبتها رب العزة في كتابه حين قال جل وعلا: «كذلك ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» . . أما المستضعفون فهم يعشقون الحق ، بحثاً عن الخلاص ، خاصةعندما يجدون الكلمة الحانية التي تلامس شغاف قلوبهم وترفعهم من أدران جاهليتهم صوب آفاق عليا إلى حيث التكريم الالهي : «ولقد كرمنا بني آدم». «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» . هنا

* نشر المقال في مجلة (البلاغ) الكويتية- عدد ١٠٠١- ٢٣/٧/١٩٨٩.

يبدأ المستضعفون رحلة البحث عن الخلاص ونداء الله يرن في آذانهم «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . . ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». إنه فرعون أي زمان وأي مكان فالخطاب هنا يعم ولا يخص .

نعود ونقول : إنه ومن هذا المنطلق تبرز مسؤولية الأديب المسلم في رفع راية المستضعفين والصدع بها مهما كلفه ذلك من عناء السجن والنفي . فالكلمات كما قال سيد قطب رحمه الله «تبقى عرائس من الشمع حتى إذا متنا من أجلها أضاءت» .

والشاعر شريف قاسم من القوم الذين ولدوا من رحم المعاناة فجاء عطاؤهم صادقاً ينبض بالحياة . . وديوانه «أناشيد على الدرب» الصادر عن دار عمار في عمان يأتي مرحلة من مراحل هذا العطاء الذي نسأل الله له أن يتواصل حتى يغذي مسيرة الأدب الإسلامي بشعر يجعله إنسانياً عالمياً وينأى به عن الخصوصية الضيقة . ذلك أن على الشعر الإسلامي أن يخرج من إسار الوعظ ليعطي فكرته بأسلوب أكثر سلاسة ليجذب القارئ أياً كان اتجاهه صوب

هذا اللون من الأدب لأن من يريد أستاذية العالم لا بد له أن يرتفع بقامته ليبلغ هذه المنزلة .

رغم ما تقدم فإن لديوان «أناشيد على الدرب» خصوصية تجعله يترجم لوناً خاصاً من ألوان الشعر الإسلامي ، فهو شعر خرج من رحم المأساة، فجاء كله أناشيد بكل ما تحمله كلمة أناشيد من إيحاءات . وأناشيد تحمل الهم الإسلامي وتصور عمق معاناة حملة هذا الدين وهم في رحلة إثبات وجودهم كحملة لمشعل الحضارة . ويعطي الشاعر فيها بنبض أناشيده رغم ظلام الليل الدامس بشرى للمؤمنين بالنصر. إنه الفجر الذي يولد من أشد حالات الليل احليلاكاً أو دماسة .

الشاعر في طول الديوان وعرضه يحاول أن ينشر في خلايا الجسم الإسلامي دماء الحرية والبشرى بالخلاص. قد يتفاءل الشاعر كثيراً ، ولكن الشاعر المؤمن يجب أن يكون كذلك لأن حملة الأقلام وأهل الابداع هم الذين يمثلون زرقاء اليمامة التي تنذر بالخطر . ولكنهم أيضاً يمثلون طائر البشرى الذي يجوب فضاء الأمة مبشراً إياها بأن خلاصها قادم إن هي تمسكت بكتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم .

الشاعر رائد والرائد لا يكذب أهله أبداً فهو يقدم النداء المخلص لأبناء الأمة لكي يشدّوا العزم وينشدوا الخلاص . . والخلاص كما يراه الشاعر لا يكون إلا برفع راية الإسلام والجهاد والثورة على الطغاة . . . حتى يأخذ القرآن وضعه كدستور لهذه الأمة ولا يبقى ملقى على الرفوف للبركة والقراءة في المآتم . . يقول :

يا بني الإسلام ثوروا

وادحضوا الكفر وسيروا

إنه خير ونور

فاحملوه واستقيموا

إنه وحي السماء

ويقول في قصيدة أخرى أو أنشودة أخرى بتعبير أدق . . .

في مدرسة القرآن لنا

عهد بالعلم وبالأدب

تسمو باللهفة أنفسنا

obeikandl.com

القصائد في مجملها تصلح كأناشيد يحولها منشدون مبدعون إلى أعمال إنشادية وهي بذلك تعطي -في ظني- أثراً أكثر من كونها مقروءة. . . واعتماد الشاعر على البحور الغنائية وخاصة البحر المحدث أو البحر الراقص كما يطلق عليه العروضيون . وكذلك التنويع في القوافي في كل أربعة أشطر على غرار المواويل الشعبية يعطي القصائد خاصية غنائية يجب أن لا يغفل عنها المنشدون ، خاصة أن النشيد الإسلامي قد أصبح له جمهوره العريض الذي بدأ يتذوق هذا اللون من الفن كبديل إسلامي عن موجة الغناء الهابط التي تجتاح الساحة في هذه الأيام .

نبرة الثورة عالية عالية في قصائد الديوان ترفع حس الثورة لدى قارئها . ولعلها تصلح أناشيد للحرب تبث الحماسة والثورة في نفوس المجاهدين . وبالطبع -وكما أسلفنا -هذا أسلوب ليس مقبولاً على إطلاقه في الشعر الإسلامي ولكن لهذا الديوان كما قلنا خصوصية- لنسّمها خصوصية أناشيد الثورة . . . يقول في قصيدة (من نار إبائك).

أضرم أضرم ليل الكفر

من نار إبائك والفجر

بلهيب الثورة والثأر

جار الالحاد بمشرقها

والغرب صليبي المكر

هدّوا جدران مفاخرنا

علنا . . بالحرب . . وبالسر

فانهض وتقدم مدَّرعاً

بهدى القرآن وبالفخر

ما سلف لا يعني أن الشاعر لا يقذف في ديوانه إلا حمماً من ناردون وردة أو زهرة يلقيها بين ظهرانينا تذكرنا بمعاني السلام التي ما جاء الإسلام إلا لارسائها وما سن الحرب إلا لهدم الأصنام التي تحول دون بلوغ البشر دعوة الله التي هي مكمن السعادة .

وفي هذا المقام أذكّر الشاعر والشعراء الإسلاميين عامة بأن قصيدة الحرب لم تعد تلك القصيدة التي تمتلئ بارود اً ومدافع ومتفجرات بل لعلها تكون أجمل عندما تحمل كل معاني الطهر والعذوبة والبحث الدائب عن السلام لأن

obeikandl.com

الحرب في ديننا لم تكن يوماً هدفاً لذاتها بل كانت - كما قلنا- لازاحة الطواغيت الواقفين في سبيل دعوة المحبة والخير والسلام .

كمثال على قصيدة الحرب العابقة بالروح الإنسانية ، نذكر هذا المقطع من ديوان "الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق" للشاعر الفلسطيني إبراهيم نصر الله . والديوان قصيدة واحدة مطولة تستلهم عملية للفدائيين الفلسطينيين . يقول الشاعر :

«كلمة السرّ : حبٌّ

والخطة : أن نسير إلى عسقلان

فنزرع فيها الشجر

ثم نمضي إلى رفح

وهناك نجني الثمر

والهدف :

أن يكون الفضاء لهذي العصافير لا للرصاص الذي غاص في دمنا وانتشر»

نعود للقول: إن الإنسان المسلم لا يطلب الخير لنفسه

فقط بل هدفه أن يعمّ النور كل العالم ، ذلك أن الإنسان المسلم لا يعتبر نور الإسلام وسعادته حكراً عليه وإنما يتمنى أن ترفرف راية السعادة على كل البشر.

أخي في العالم الشرقي

أخي في العالم الغربي

أخي إن كنت من عجم

أخي إن كنت من غرب

ويقول :

بلادي ستسقي دروب الربيع

وتروي الأنام كؤوس الندى

ليعبق بالحبّ نفح الفخار

وتشفى القلوب ببرد الهدى

ويمرغ روح الأماني القشيب

ويغدو بين الورى موردا ،

وهكذا يمضي الديوان على هذا النسق يبشر ويحذر . . يبشر المؤمنين بأن الضوء قادم ، قادم ما دام القرآن ينبض

obeikandl.com

في عروقها وما دامت كلمات رسولها صلى الله عليه وسلم تشعل فيها جذوة الإيمان ويحذر من مغبةالبعد عن المنهج القويم حيث الهلاك لا محالة بالسقوط في مستنقع التغريب والتبعية ، وتلوح في الديوان صدمات قلب أضناه البعد عن الديار ، وهدّه الشوق للأحباب ، فذهب يسترسل بلحن عذب شجي متسائلاً عن حلكة الليل . . .

قالت النفس وقد فاض الفؤاد

أين نمضي بعد ذياك المسير

فقيود الشوق في أرض الوداد

ملكتني فأنا اليوم أسير

ليتني فيها أغني

كالطيور الصادحات

فرحاً ما دمت حيا

في الرحاب الطاهرات ،

ثم تأتي الإجابة منسابة كجدول رقراق يبعث النور في القلوب الصدئة . .

obeikandl.com

في حنايا النور قد ذابت رؤاي

تحمل الحب شهياً والحنين

ها هنا مغنى الأماني إذ هواي

للهيب البعد من قبل يدين

صف سروري لصحابي

حيث كنا نتمنى

هذه دنيا حبيبي

تمسح الأشجان عنا

إنها تجربة حية وطيبة ، ولكننا نبقى بحاجة من شريف قاسم إلى ما هو أجود وأكثر عبقاً بالصورة والرؤى الجديدة غير المكررة حتى يرتفع مع إخوانه بالشعر الإسلامي إلى الأفق الذي ننشد ، أفق الإسلامية العالمية وما ذلك على الله بعزيز .

●●●

obeikandl.com